الفصل السادس

الدعوة لتأميم قناة السويس

obeikandl.com

obeikandl.com

الدعوة لتأميم قناة السويس

يقول الدكتور مصطفى الحفناوي: فيما تقدم تحدثت عن مواقف في هذه القضية للملك السابق، ولبعض وزرائه، ومنهم علي ماهر، وقد امتدحت هذه المواقف التي لم تكن موالية لشركة قناة السويس، بل كانت على عكس ذلك تمامًا، امتدحتها إحقاقًا للحق، ولكي أكون أمينا إلى أبعد الحدود في كتابة التاريخ. ولكن أحدًا من هؤلاء لم يذهب إلى حد التفكير، ولو للحظة واحدة، في تأميم قناة السويس، وإنما كانوا يسايروننني في التجهيز لما يجب عمله فور انتهاء أجل الامتياز في 17 نوفمبر سنة 1968م؛ حتى لا يحل هذا الميعاد قبل أن تكون مصر على أتم الاستعداد لإدارة قناتها. وقد أثنيت على مواقف محددة لحكومة الوفد برئاسة المغفور له مصطفى النحاس، ولكن لا يفوتني أن أسجل هنا أن وزير المالية والداخلية في وزارة الوفد، الأستاذ محمد فؤاد سراج الدين، وهو صاحب أكبر نفوذ في حكومة الوفد وقتئذ، كانت له تصريحات عجيبة بالنسبة لموضوع التأميم، فقد زار باريس، وأولمت له شركة قناة السويس في سنة 1951م، وسأله الصحفيون هناك عما يقال عن احتمال تأميم قناة السويس، فاستنكر الدعوة لتأميم الشركة، وحمل عليها حملة شديدة، وأكد أن الحزب الذي ينتمي إليه، والذي كان يشغل فيه منصب السكرتير العام لن يفكر قط في تأميم الشركة، وأكد أن الشركة ستكمل المدة المتبقية من عقد الامتياز، وأؤكد للقارئ أنه لو قدر للعهد السابق على ثورة 23 يوليو سنة 1952م أن يستمر لاستمرت شركة قناة السويس باقية على أحسن الفروض حتى 17 من نوفمبر سنة 1968م، بل كان ممكنًا أن تستمر بعد هذا التاريخ ولو في صورة أخرى.

يقول الدكتور مصطفى الحفناوي: وإلى وقت قريب جداً كان بعض المثقفين المصريين الذين نفد صبرهم بسبب الشلل المستمر الذي أصاب قناة السويس نتيجة لحرب الأيام الستة في 5 من يونيو سنة 1967م، كان هؤلاء يسألونني سؤالاً عجيبًا. فيقولون: لو أننا عالجنا المشكلة في إطار تعاقدات القرن التاسع عشر، وتركنا الشركة حتى تاريخ انتهاء الامتياز في 17 نوفمبر سنة 1968م، أما كان هذا أولى، وكان يمكن أن يجنبنا المصائب الثقال، وكان ردي على هؤلاء هو أننا كنا قبل تأميم الشركة في 26 يوليو سنة 1956م في سباق مع الاستعمار، وكان الاستعمار مصممًا على مدّ أجل الامتياز أو تدويل القناة لبقاء قبضته على هذا الشريان الحيوي، وما كان ليرفع هذه القبضة قطّ عن قناة السويس في 17 نوفمبر سنة 1968م، وقد رفعها جمال عبد الناصر في 26 من يوليو سنة 1956م، بعمل جبار ومباغت، ما كان ممكنًا بأية حال أن تتحرر قناة السويس. وتؤكد هذه الحقيقة الوثائق التي سنتكلم عنها في هذا الفصل من مذكراتنا.

يقول الدكتور مصطفى الحفناوي: في السنوات الأخيرة للعهد السابق على الثورة كانت حياة مصر السياسية مضطربة غاية الاضطراب. وكنت في باريس في سنة 1950م حينما ظهرت فضيحة ما سموه بالأسلحة الفاسدة، وكان الملك السابق فاروق يقضي أوقاتًا طيبة بملاهي "دوفيل" وأنديتها الليلية، وكانت صحف فرنسا تحمل عليه عملات عنيفة، وتصفه بكلمة ملك "الباكاراة"، وكانت اليهودية الدولية ومعها أبواق الدعاية الصهيونية والأمريكية والبريطانية تجسم من انحرافات فاروق، وبطانة الجواسيس التي أطبقت عليه إلى نهايته. وفي صيف ذلك العام حدث أن النائب العام في مصر ـ واسمه "محمد عزمي" فيما أذكر ـ قد قام بتفتيش بعض خزائن القصر في مناسبة تحقيق قضية الأسلحة الفاسدة، وقامت حملة جريئة في مجلس الشيوخ ضد الملك السابق، تزعمها محام جريء في

مصر هو الأستاذ مصطفى مرعي، وتحدثت الصحف في باريس عن احتمال مظاهرة في القاهرة شبيهة بالمظاهرة التي تزعمها المرحوم "هنري سباك" في بروكسل، والتي حرّمت على ملك بلجيكا أن يبيت ليلة في بروكسل، وقد أحضره إليها الأمريكان وحموه بمدرعاتهم ومصفحاتهم، وتم إجلاء المتظاهرين من زعماء بلجيكا وكبار ساستها عن عاصمة ملكه. وقالت بعض صحف فرنسا إن شيئًا كهذا سيحدث في القاهرة حينما يعود إليها باريس بعد أيامه ولياليه الصاخبة في "دوفيل". وانتقل فاروق وبطانته من أمثال "كريم ثابت" إلى مدن الريفيرا، وهناك اجتمع به رئيس وزرائه النحاس. وأبدى فاروق رغبته في عدم العودة إلى عرشه، وهذه حقيقة علمتها فور حدوثها؛ بحكم منصبي في السفارة المصرية. وعلمت علمًا يقينًا أن النحاس ـ رحمه الله ـ أكد للملك السابق أن ليس ثمة خطر قطّ من عودته إلى مصر، وتوسل إليه كي يعود إلى مصر، وأكد له أنه سيضرب بيد من حديد على الذين يتحرشون بالملك السابق في مصر من أعضاء مجلس الشيوخ وغيرهم. وشكر الملك رئيس وزرائه، وقيل إنه كان متأثرًا لأنه لم يكن ينتظر من غريمه السابق مصطفى النحاس هذا التفاني في الإخلاص للعرش وصاحبه. وقد أكدت لنا المصادر الدقيقة للأخبار حينئذ أن فاروق عائد إلى مصر، ولكن أيامه فيها محدودة، وأنه سيسقط في أي لحظة. وكانت الأحداث تسير مسرعة في هذا الاتجاه، الذي باركته أبواق الدعاية العالمية مبكرًا.

يقول الدكتور مصطفى الحفناوي: لكل هذا لم يكن وقوع ثورة 23 من يوليو سنة 1952م مفاجأة لي، وكنت أفكر قبل قيام الثورة في مصير قضية قناة السويس، إذا اشتعلت نيران الثورة، وكنت متفائلاً. وقد أوضحت في الفصل السابق ما فعله أول رئيس وزراء في عهد الثورة، وهو المرحوم علي ماهر. وبعد استقالته تربصت وانتظرت الوقت المناسب الذي أحمل فيه ملف قناة السويس إلى قادة

الثورة، وقد حدث هذا بأسرع مما كنت أتوقع، وبيان ذلك كما يلي:

زارني صديق قديم هو المرحوم "الدكتور محمود صالح" الذي كان يدرس في ألمانيا قبل الحرب العالمية الثانية، وكان معروفًا بميوله الشديد للنازية، وكان قبل قيام الحرب العالمية في سبتمبر سنة 1939م، يشاركني في جولات، كنا نرصد فيها معًا أسماء وعناوين وتحركات اليهود المقيمين في مصر، والمعروفين – وقتئذ – بأنهم طوابير خامسة للصهيونية أو للشيوعية، وانقطعت أخبارً صديقي الذي عاد إلى برلين، فور قيام الحرب العالمية الثانية، وكنت أعتقد أنه مات إلى رحمة الله، أثناء الحرب، ولكنه ظهر في مصر فجأة في سنة 1952م، وعاد لزيارتي باستمرار. ولما أن وقعت ثورة 23 من يوليو سنة 1952م، أخبرني أنه اتصل بالضباط الأحرار، وكان فرحًا بهم، كثير الثناء عليهم، وطلب مني أن أصحبه إلى مقر الثورة وقيادتها العامة، فاعتذرت عن إجابة طلبه وقلت إن جماهير من المنافقين والعناصر الانتهازية سعت إلى قيادة الثورة وتسابقت نحوها. وأخشى ما أخشاه أن أذهب وأختلط بطوابير هؤلاء، وهم طلاب حاجات ولست منهم، ولكن إذا دعاني قادة الثورة لمقابلتهم فسوف أسعى إليهم مرحبًا، وفي يدي الملف الكامل لقضية قناة السويس. ويبدو أن الدكتور محمود صالح ـ الذي مات إلى رحمة الله، بعد هذا التاريخ بقرابة عامين ـ قد تكلم عني في القيادة العامة، ونبه الضباط الأحرار لشخصي، وزارني ليقول لي إن رجال الثورة قرروا استدعائي لمقابلتهم، ومطلوب مني أن انتظر مكالمة تليفونية.

ثم يكمل الدكتور مصطفى الحفناوي: وبعد أيام قلائل، وكنا في أواخر أغسطس أو أوائل سبتمبر 1952م، دق حرس الهاتف بمكتبي، وجرى الحديث الآتي:

ـ هنا القيادة العامة، إلى أي وقت تستمر في مكتبك؟

مصطفى الحفناوي : حتى الساعة الثامنة والنصف .

الضابط المتكلم (ولم يذكر اسمه) : سنزورك في مكتبك اليلة .

يقول الدكتور مصطفى الحفناوي : وبعد فترة قصيرة عاد لمكالمتي ليقول "عندنا مؤتمر الليلة ، ونحن مشغولون ، فهل تسمح بالحضور للقيادة العامة لنتحدث معك؟ . . ولم أكن أعرف معنى كلمة مؤتمر بلغة العسكريين ، وأنها تعني اجتماعاً . . وذهب إلى مقر القيادة العامة بمنشية البكري ، فقابلني ضابط برتبة "صاغ" واسمه "إبراهيم الطحاوي" وقدمني لضابط شاب فارع القامة برتبة "بكباشي" وقال وهو يقدمني . هذا هو الأخ جمال عبد الناصر الذي يتقدمنا في صفوف ضباط الثورة . وكان جمال عبد الناصر ـ رحمه الله ـ يشغل وظيفة اسمها "مدير مكتب القائد العام للقوات المسلحة" ، وكان في عينيه بريق ينمّ عن حدّة ذكاء ، وقوة إرادة وقوة شخصية ، وكان الناس يقولون همساً إنه القائد الحقيقي للثورة ، ولكنه متنكر خلف منضدة مكتبه المتواضعة ، وخلف ستار اسمه "اللواء محمد نجيب" .

يقول الدكتور مصطفى الحفناوي : وتواعدت مع الأخ إبراهيم الطحاوي على لقاءات يومية ، وتوثقت صلتنا بسرعة ، وتعرفت في القيادة العامة بمجموعة أخرى من قادة الضباط الأحرار أذكر منهم المرحومين : عبد الحكيم عامر ، وصلاح سالم ، والأستاذ كمال الدين حسين ، وتكلمت طويلاً مع المرحوم جمال عبد الناصر الذي طلب مني أن أفسر له موضوع قناة السويس الذي أنا مشغول به ليلاً ونهاراً . وشرحت له في إيجاز تاريخ القضية ومشكلات قناة السويس المعاصرة بالتفصيل ، وكان شديد الإصغاء لكل كلمة قلتها ، وقال عبارة واحدة دلتني على صفاء ذهنه ، ودقته في وضع خططه . حيث قال لي ـ رحمه الله ـ وهو جالس بحجرته في القيادة العامة بمنشية البكري ، وبعد قيام الثورة ببضعة أسابيع ، العبارة التي أذكرها

وتـدوي في أذنـي حتـى الآن: "اسمـع يـا دكتـور.. علينـا أن نركـز جهودنا في إجلاء الاحتلال البريطاني عن قاعدتـه في قنـاة الـسويس. وإني أعدك بتأميم شركة قناة السويس بعد الجلاء مباشـرة. ولكـن إذا تعرضنا لموضوع الشركة قبل الجلاء سوف تتعقد المسائل ولن نـستطيع أن نفعل شيئًا.. !!" والذي راعني في السنوات التالية، هـو أن جمـال عبد الناصر حـافظ علـى خطتـه هـذه، وحـدث جـلاء الإنجليـز عـن القاعدة، ورفع عبد الناصر عليها علم مصر بعـد جـلاء آخـر جنـدي بريطاني في يونيو سنة 1956م، وأمم شركة قنـاة الـسويس في يوليـو سنة 1956م.

يقـول الـدكتور مـصطفى الحفنـاوي: لازمـت الـسيد إبـراهيم الطحاوي يوميًّا، حتى إنه كان يغادر بيته بالجيزة صباحًا، ويحـضر إلى داري بشارع أهرام الجيزة، قبل مغادرتها، فكنا نبـدأ يومنـا صـباحًا، ويتكرر لقاؤنا في اليوم الواحد، ويستمر مساءً، وقد نـسهر إلى سـاعة متأخرة بالقيادة العامة بمنشية البكري. وتقرر إنشاء هيئة سميت هيئـة التحرير، وطلب مني أن أسهم في تأسيسها، وإعداد ميثاقهـا، وقيـل لي "ساعدنا في ذلك، ثم نتفرغ لموضوعك قناة السويس، واشـتركت في اجتماعات طويلة من أجل هذه الهيئة، وحضر آخرون مـن رجـال الثورة هذه الاجتماعات، وأداروا المناقـشات فيهـا سـاعات طـوالاً، ومنهم الـسيد/ عبـد اللطيـف البغـدادي الـذي عرفتـه يومئـذ معرفـة جيدة. ثم اشـتركنا في وقـت متـأخر في اجتماعـات بعواصـمً بعـض المحافظات. وأكثر من ذلك. أبلغني السيد/ إبـراهيم الطحـاوي أنـه تقرر بعد تأسيس تلك الهيئة أن يسند إلى شخصي منـصب سـكرتيرها العام، وقال إن مجلس قيادة الثورة أصدر قراراً بهذا. ولـذلك فإنـه في أول عيد من أعياد الثورة، في ذكرى انقضاء ستة أشـهر عليهـا، أقـيم احتفال حكومي وشعبي كبير بهذا العيـد في ميـدان التحريـر، وفـوق المنصة خصصت مقـصورة لأعـضاء مجلـس قيـادة الثـورة والـوزراء،

وعين لي مكان بينهم جلست فيه أثناء الاحتفال بصفة السكرتير لهيئة التحرير. وعدل عن هذا القرار لأن المرحوم جمال عبد الناصر شغل منصب السكرتير العام لهيئة التحرير، وقد سارت الهيئة في الطريق الذي سارت فيه. ثم حل محلها تنظيم آخر باسم الاتحاد القومي الذي زال بعد هذا ليحل محله الاتحاد الاشتراكي فيما بعد.

يقول الدكتور مصطفى الحفناوي: وقبل ظهور هذه التنظيمات أخطرتُ بأن قيادة الثورة رأت في أواخر خريف سنة 1952م، أن تنظم موسمًا ثقافيًّا في نادي القوات المسلحة بالزمالك، وكان اسمه وقتئذ "نادي الضباط"، ورأت أن أفتتح هذا الموسم الثقافي بمحاضرة عن قناة السويس، وفي الأسبوع التالي ألقى المرحوم عبد العزيز عبد الله سالم وزير الإصلاح الزراعي محاضرة عن قانون الإصلاح الزراعي، وكان الأستاذ الدكتور طه حسين هو المحاضر في الأسبوع الثالث. وكان يوم محاضرة الافتتاح هو 17 نوفمبر سنة 1952م. وقد اختير هذا اليوم بالذات تذكيراً بالتاريخ الذي ينتهي فيه امتياز قناة السويس. ولم أعدّ المحاضرة، وإنما ارتجلتها، واستغرقت ساعة كاملة، وحضر جمع كبير من كبار ضباط الجيش من مختلف الأسلحة والرتب وبينهم أعضاء مجلس قيادة الثورة، وفي مقدمتهم رئيس الحكومة وقتئذ اللواء محمد نجيب الذي قرأ في الميكروفون بعض قصار السور القرآنيةً الكريمة، وقدمني للحاضرين وحينما ارتقيت المنصة، عرضت المشكلات عرضًا مركزًا، وقلت بصريح اللفظ إني أطالب بتصفية شركة قناة السويس التي هي أداة الغرب في استعمار بلاد المسلمين، وإذا كان لا بد من تأميمها، فعلينا أن نؤممها، ولكن على القوات المسلحة المصرية أن تكون مستعدة برًا وجواً لمواجهة نتائج التأميم ذلك أن الحرب واقعة لا محالة، ستحاربنا إنجلترا وستحاربنا فرنسا حتما، ويجب أن نستعد بالسلاح. وبينت في محاضرتي أسباب ذلك وكنت وكأني قرأت في كتاب مفتوح.

يقول الدكتور مصطفى الحفناوي: وفي صباح يوم 18 من نوفمبر سنة 1952م، نشرت الأهرام وبقية صحف الصباح نص محاضرتي، وأخطر من المحاضرة نص البيان الرسمي الذي صدر على لسان اللواء محمد نجيب، وقد عانقني فور انتهاء محاضرتي، وارتقى المنبر وطلب من الحاضرين أن يرددوا من ورائه قسمًا مغلظًا بتنفيذ توصياتي بالحرف الواحد.

يقول الدكتور مصطفى الحفناوي: وبعد أيام قلائل وصلني كتاب بتوقيع السيد/ محمد مجدي حسانين بوصفه رئيسًا لمجلس الوزراء، أبلغني فيه أن مجلس الوزراء قد أصدر قرارًا بإنشاء مكتب يلحق بمجلس الوزراء لجمع الوثائق وعمل الدراسات اللازمة للاستعداد لاستلام قناة السويس فور انتهاء عقد الامتياز، وأن الحكومة المصرية عهدت إليّ بهذا المكتب، ولي أن أختار مكانه بدار مجلس الشيوخ أو برئاسة مجلس الوزراء. وكان المهندس محمود يونس مستشارًا فنيًّا لمجلس الثورة، وكان حارسًا على القصور الملكية، وبهذه الصفة صدر إليه الأمر بأن يضع تحت تصرفي محفوظات قصر عابدين التاريخية. وتراخى تنفيذ هذا القرار، ثم ما لبثت أن أحسست ببرود جو العلاقة بيني وبين الحكومة، واتجاهًا للعدول عن القرار المشار إليه. ولم أكن أعرف الأسباب يومئذ، ولم يخبرني أحد بما وجدته بعد تأميم الشركة في 26 يوليو سنة 1956م، في ملفاتها السرية، حيث وجدت ملفًا فيه ترجمة لمحاضرتي في نادي الضباط، وترجمة لتصريح اللواء محمد نجيب، وتقريرًا موقعًا من المستر "كافري" سفير الولايات المتحدة الأمريكية، ومذكرة موقعه من السفير البريطاني في القاهرة، وقد توجه سفيرا الدولتين معًا إلى اللواء محمد نجيب بإنذار رسمي طلبا فيه من حكومة الثورة تحديد موقفها، وهل حقيقة لديها النية في تنفيذ ما أنادي به، وهو فيما وصفه السفيران مشاغبة وإثارة وتخريب!! وعرفت بعد قراءة هذا الملف أن

ساعد الثورة كان ضعيفًا، وأن الدولة الاستعمارية الغربية واجهت الأمر بهذه الصرامة، فأصبح الاتصال بشخصي في موضوع قناة السويس أسباب متاعب اقتضت الحكمة إرجاءها إلى الوقت المناسب..

ويقول الدكتور مصطفى الحفناوي: وأصابتني في 8 من ديسمبر سنة 1952م أشد كارثة تعرضت لها في حياتي، ذلك أنني كنت أعيش مع أولادي بفيلا فاخرة كنت أملكها بشارع أستوديو الأهرام، وكان ابني البكر المرحوم زياد مصطفى الحفناوي قرة عيني وغاية آمالي، وكنا نستعد للاحتفال ببلوغه اثنى عشر ربيعًا، وعاد من مدرسته قبيل الظهر فحضر إلى دارنا زميل بالمدرسة ليسأل عن الواجبات المدرسية في أسبوع حيث كان هذا التلميذ قد تخلف عن مدرسته. وبينما كان ولدي يملي لزميله قائمة الواجبات، وكانا واقفين بباب دارنا مرت فجأة سيارة صغيرة كانت تتدرب على قيادتها طفلة بلغت من العمر وقت الحادثة عشر سنوات وعشرة أشهر، ولكنها كانت طفلة مدللة لجار لنا فتنته النعمة، وهو مقاول طلاء بيوت كان من أثرياء الحرب جهولاً ليست له مقومات، فسمح للطفلة بهذا العبث الذي أودى بحياة ولدي البكر في يوم ميلاده الثاني عشر؛ حيث تعثرت في قيادة السيارة، وصعدت بعجلاتها الخلفية إلى رصيف دارنا فسقط تحت العجلات ومرت على جسده النحيل فأحدثت نزيفًا داخليًّا وورمًا في جنبه الأيمن، ونقل على الفور إلى المستشفى الذي كان يعمل به صديقي الجراح العلامة الدكتور أحمد أبو ذكري الذي بادر بإجراء عملية نقل دم للمصاب، ولكن فاضت روحه أثناء العملية، وتحطم قلبي، ودخلت منذ تاريخ الحادث في ظلام دام، وقررت وقتئذ اعتزال صناعاة المحاماة. وقد ضاعف من آلامي أنَّه بعد الحادث ببضَّعة أشهر، ولد ابني طارق، وفي جنبه الأيمن إصابة شقيقه التي انتقلت إلى جسده، وكانت صورة طبق الأصل،

وأجريت له جراحة استئصال الكلى اليمنى بعد أن بلغ من العمر سنة وثلاثة أشهر. ولم يقف الأمر عند هذا الحد، وإنما أصابته منذ بلوغه من العمر ثلاثة أشهر نوبات حادة شبيهة بالصرع، وعند النوبة كان جسده الضعيف يرتجف وتتقلص عضلات وجهه حتى يأخذ سحنة شقيقه القتيل حينما كان يسلم روحه إلى بارئها. وليس لهذه الحالة في مصر مَن يعالجها أو يستطيع عمل أي شيء بالنسبة لها، فنقلناه إلى باريس، ثم إلى أمستردام، ولندن، ثم إلى باريس، وأجريت له عمليات بالغة عناية الدقة والخطورة بمعرفة الأستاذ "مارسيل دافيد" الذي قالوا عنه إنه أكبر جراح ومتخصص في المخ في أوروبا بأسرها، وبفضل من الله سبحانه استطاع أن ينقذ حياة ولدي طارق، ولكنه ـ وقد تجاوز العشرين من حياته ـ مازال تحت العلاج معوقًا وممتعًا بمواهبه العقلية بالكامل، ولم يستطع أن يتعلم في مدرسة بل تعلم ما استطاع أن يتعلمه في البيت على أيدي مدرسين ومدرسات على أعلى المستويات. وقد أفاد كل من "مارسيل دافيد" و"هارفي جاكسون" بلندن أن المريض أنقذ حياة أمه حينما رأت بعينيها حادث الابن البكر، فقد كانت الصدمة كافية للقضاء على الأم، فامتصها الجنين وهو بين أحشاء أمه وأنقذ حياتها، ولن يتخلص جهازه العصبي من نتائجها إلا في موعد لا يعلمه إلا الله. وكان حتمًا عليّ أن أضاعف الجهد للحصول على المال اللازم لعلاج ابني المريض في الخارج، وهو نقد أجنبي لا يتيسر تحويل مقابلة من مصر، وكان صديقي دراب وشريكته الهولندية أكبر عون لي في هذه المحنة القاسية، وشاء الله سبحانه أن أمارس صناعة المحاماة على الصعيد الدولي وأن أحصل على رزق حلال واجهت به هذه المشكلة.

يقول الدكتور مصطفى الحفناوي: على أن انشغالي بمحنتي وما تفرع عنها من ظروف أشرت إليها، باعدت بيني وبين صديقي إبراهيم الطحاوي وزملائه من رجال الثورة لانشغالي كل الوقت

بمتاعبي. وأشهد أنهم كانوا من المروءة والنخوة بحيث تابعوا مشكلاتي الخاصة، وكانوا مواسين ومجاملين، وكانت للمرحوم جمال عبد الناصر لفتة إنسانية لا أنساها؛ ففي سنة 1953م قرر الأطباء في القاهرة ـ بعد "كونسولتو" طويل ـ نقل المريض إلى باريس أو لندن في أقل من ثلاثة أيام، وكان ينبغي أن تسافر معنا زوجتي وبقية الصغار، وأبرقت للمرحوم عبد الناصر فتدخل شخصيًّا وأصدر الأوامر المكتوبة المشددة للتغلب على الروتين، وتمت الإجراءات في الجوازات ورقابة النقد في أقل من أربع وعشرين ساعة. وكان ـ رحمه الله ـ كلما لقيني في السنوات التالية، وفي زحام أعياد النصر في بور سعيد وغير ذلك من المناسبات، يستوقفني كلما صافحته ليسألني تفصيلاً عن أخبار الابن المريض. ولن أنسى له ذلك ما حييت، رحمه الله، وجزاه عن ولدي خير الجزاء.

يقول الدكتور مصطفى الحفناوي: ذكرت الجانب الإنساني في عبد الناصر، ويقابل ذلك ما قرأته في ملفات شركة قناة السويس حينما ضبطت بعد التأميم، وطلب مني دراستها واستخلاص ما يمكن أن يستخلص منها، فقرأت ملفًّا ورد فيه كلام عن حادث قتل الابن البكر، وبرقيات شفوية بعث بها الوكيل الأعلى للشركة من مكتبه بشارع "لاظوغلي" بقصر الدوبارة إلى رئاسة الشركة بشارع أستورج رقم (1) بباريس، يزف لها أخبار محنتي ليؤكد أني من وطأة هذه المحنة سوف أعجز عن مواصلة الحرب ضدها، ولم أعد الرجل الذي يخشونه، وغير ذلك من عبارات التشفي التي تبرأ منها رسائل السماء، والخلق الإنساني.

يقول الدكتور مصطفى الحفناوي: وحدث عكس ما كانوا يتوقعونه، ووصلت في المعركة إلى أقصى مداها، وأضحت القضية عندي لونًا من العبادة، وعملاً أتقرب به إلى الله، وأناجي به روح

ولدي البكر "زياد مصطفى الحفناوي"، الذي كان عونًا لي وقت إعداد رسالتي، نعم أصبحت أقوى مما كنت. وآية ذلك أنني وأنا أتقبل العزاء في ولدي البكر، وصباح اليوم الذي واريته فيه التراب، توجهت إلى دار القضاء العالي في ملابس الحداد، وترافعت أكثر من ساعتين في إحدى القضايا لصالح نقابات العمال، وأبيت أن تؤجل المرافعة بسبب محنتي، وكان عمال الشركة يشغلون بعض صفوف المقاعد المعدة في القاعة للجمهور، وقد رأيت وجوها غطتها الدموع المنهمرة حينما كنت أغالب ضعفي، وتنطلق صرخاتي من قلبي ضد شركة استعمار الغرب للشرق، وآية ذلك دار زياد لمكافحة الاستعمار التي أسستها بحي جاردن سيتي غداة رحيله، وقصة هذه الدار تتلخص في أن زميلي واسمه الأستاذ صبحي برسوم، زارني معزيًا في ولدي البكر، وروى لي أن إحدى كريماته أصيبت بلين عظام أحدث تقوسًا في العمود الفقري، وأنه يريد أن يسافر إلى أوروبا لمعالجتها، وأن الذي يملكه هو الفيلا الصغيرة رقم 4 بشارع إبراهيم نجيب بجاردن سيتي، ومساحة المبنى والحديقة أربعمائة وخمسة وعشرين مترا، وقال إنه يعرضها للبيع، ويطمع في وساطتي لدى شركة مقاولات تشتريها، فأجبته أني أشتريها بالثمن الذي طلبه وهو نحو سبعة آلاف جنيه، وعاينتها وحررت العقد، وسلمته مقدم الثمن في دقائق معدودات، وتم التسجيل والسداد باقي الثمن في أقل من شهر واحد. جرى ذلك وأنا في غير حاجة إلى تلك الفيلا الضئيلة وحديقتها، ولم أكن أعلم ماذا أفعل بها، وإذا بهاتف من أعماق نفسي يقول "لتكن دارًا لصحيفة قناة السويس" وسميتها بهذا الاسم "دار زياد لمكافحة الاستعمار"، وطلبت من أحد المقاولين إخلاء حديقتها ـ وهي أكبر جزء من مساحتها ـ من الأشجار الباسقة التي كانت تغطيها، وإقامة بناء من طابقين: الأرضي منه مبنى مطبعة، والثاني للإدارة. وبسرعة خاطفة شيد البناء واشتريت المطبعة

وملحقاتها من ماكينات وصناديق حروف، وفوق البناء رفعت لافتة مكتوبة باللغتين العربية والفرنسية، وبأحرف مضيئة وملونة، لافتة عالية كتب فيها بعد كلمة "دار زياد لمكافحة الاستعمار" "جريد قناة السويس تطالب بتأميم شركة قناة السويس"، وفي الجزء الباقي من الأرض أقيمت زاوية للصلاة، وعين فيها مؤذن، ودارت عجلات الطباعة والمحرك الكهربائي مع الأذان وصلاة جميع الفرائض، واتخذت لنفسي مكتبًا بالفيلا الأصلية التي كانت موجودة من قبل، وخرجت أعداد صحيفة قناة السويس من هذا المبنى المتواضع، وسرعان ما تحولت الدار إلى ندوة يلتقي فيها رواد من الأصدقاء، ومن طلاب الجامعات، وعمال شركة قناة السويس وغيرهم، وهذا كله لم يتعارض قطّ مع المصلى والفرائض في أوقاتها، ومنها فريضة الجمعة. وقد تفضل شيخ الجامع الأزهر بتكليف قسم الوعظ والإرشاد بأن يبعث للزاوية خطيبًا ممتازًا في كل يوم جمعة حتى ضاقت الدار بالمصلين، وغطت الحصر الجزء المواجه للدار من شارع قناة السويس، واستمر الحال كذلك حتى يوم تأميم شركة قناة السويس في 26 من يوليو سنة 1956م، ولم تعد الدار غير ذات موضوع، فقررنا إزالتها، وإقامة عمارة سكنية، ليس للاستغلال ولكن لتكون لأولادي، الطابق الأرضي منها مسجد يحمل اسم المرحوم ولدي زياد، وقد افتتح في أول أبريل سنة 1957م، وخلفه مكتبة تضم فيما تضمه المحفوظات التي استقيت منها معلوماتي عن قناة السويس، والعديد من المراجع والمؤلفات العربية والأجنبية، وفوق هذا الطابق سبعة طوابق، كل منها شقة واحدة؛ لتكون سكنًا لولد من أولادي، أو إحدى بناتي، وعددهم سبعة، أي أنه مجمع سكني لأسرة واحدة، وللابن البكر المتوفى نصيب كالباقي، ونصيبه مسجد تقام فيه الصلوات، وأتحمل نفقاته الجارية بالكامل.

يقول الدكتور مصطفى الحفناوي: ويؤسفني أن أقرر أن إحدى

الوزارات فاجأتني بأمر الاستيلاء على الأربع الطوابق الأولى بقيمة إيجارية حددتها عنوة واقتداراً، وحينما انتهت المكاتب التي استعملت الطوابق المذكورة حل محلها مكتب إحدى الوزارات، وخفض الإيجار بتشريعات متتالية بنسبة خمسين في المائة، وليست هذه شكواي، وإنما أشكو الطريقة التخريبية التي درجت عليها إحدى الوزارات، والتي وصفها خبير هندسي ندبه القضاء المستعجل لمعاينة المبنى، فأثبت أموراً يندى لها الجبين، ومازال التخريب مستمراً، وأولادي وهم المالكون يحتاجون للسكنى بعد أن تزوج مَن تزوج منهم وأنجبوا، وكنت ـ وما زلت ـ أشكو للوزراء الذين تعاقبوا فلا أجد غير آذان صماء، وكان هذا هو المصير المؤلم للمكان الذي انطلقت منه الصرخة المدوية بتأميم شركة قناة السويس، وكان هذا هو الجزاء الرسمي لصاحب هذا النداء، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

يقول الدكتور مصطفى الحفناوي: وقد انطلقت شائعات حاولت النيل من عملي والإساءة لشخصي، وكانت تنقل بألسنة أصدقاء وزملاء كان بعضهم من رجال القضاء العالي، فماذا قالت هذه الشائعات؟ قال بعضهم إنني أطالب بمنصب كبير في شركة قناة السويس السابقة، وإن الحملات التي كنت أشنها مؤيدة بالوثائق تستهدف الضغط على الشركة، وأن تفرض عليها الخلاص من حملاتي بتعييني في إحدى الوظائف التي أسالت لعاب كثيرين من أبناء الأسر الكبيرة، ومن أصحاب التخصصات العالية. وكانت هذه الشائعة سخيفة ومفضوحة؛ إذ لم يكن معقولاً أن تمنح الشركة إحدى وظائفها الكبرى لرجل قالت في بعض مراسلاتها الرسمية مع الدولة إنه متخصص في لعنها ليلاً ونهاراً، وفي الطعن في شخص مؤسسها "فرديناند دي لسبس" وغيره من رجال الشركة الأحياء منهم والأموات، وانطلقت شائعة أخرى قالت إني أستعمل جريدة السويس في ابتزاز أموال الشركة، وكانت هذه الصحيفة أسبوعية،

وكانت تصدر بغير انتظام، فقالوا إن الشركة حينما تعطي ما كنت أطلبه كانت الصحيفة تحجب، ولا تظهر أسابيع متتالية، وحينما تقبض يدها أو تتراخى في العطاء يظهر عدد من هذه الصحيفة وبه فضائح للشركة مثيرة ومؤيدة بالوثائق والصور. ولو أن شركة قناة السويس بقيت حية إلى يومنا هذا، ولم تؤمم، لتركت الدنيا وسمعتي في الميزان، ولكان من أهل وطني مَن يصدقون تلك الشائعات أو يفرحون بها ويروجون لها، ولكن شاء الله سبحانه أن يوفق عبده وابن عبده المرحوم جمال عبدالناصر لتأميم شركة قناة السويس في 26 يوليو سنة 1956م.

وبفضل المباغتة وجدت ملفات الشركة السرية في مكتب الشركة بالقاهرة بحالتها، ولم تمسّ، وقامت لجان تحت رقابة ضباط ندبتهم المخابرات العامة بفحص هذه الملفات السرية، وترجمة ما فيها في تقارير كانت ترفع أولاً بأول إلى الرئيس الراحل جمال عبد الناصر، فماذا جاء عني في هذه الملفات؟.

يقول الدكتور مصطفى الحفناوي: إنها ملفات ضخمة تجاوز عددها الخمسة وستين ملفا فيها ترجمة إلى اللغة الفرنسية لكل محاضرة ألقيتها، أو مقال صدر عني سواء نشر في صحيفة قناة السويس أو غيرها، وتبين من الأوراق أن الشركة كانت تتعقبني في جميع تحركاتي من ساعة خروجي من بيتي إلى أن أعود إليه، وكانت قد أنشأت في إدارتها بقصر الدوبارة مكتبًا خاصًا سمى "مكتب مكافحة الحفناوي"، وكأني كنت الوباء الذي يخص جهاز لمكافحته وكان هذا المكتب يترجم كل ما يصدر عني، ويحرر التقارير الدورية والبرقيات العاجلة التي ترفع إلى باريس. ودرست ودرس معي آخرون الأوراق التي صدرت عن ذلك المكتب الذي سموه مكتب مكافحة إنسان بعينه. ولم نجد في أوراقه شيئًا من تلك الشائعات أو حربًا نفسية تقرر

أن تشن ضد شخصي، وإنما ـ على العكس ـ تبين أن الشركة كانت قد استعانت بهيئة من علماء القانون الدولي الأوروبيين، ومعهم أستاذ بجامعة القاهرة، وعهدت إلى هذه اللجنة بدراسة ترجمة دقيقة للمجلدات التي وضعتها باللغة العربية عن قناة السويس وترجمته إلى اللغة الفرنسية، وطلبت من هذه اللجنة العلمية التي شكلت على أحسن مستوى، أن تدلها على الثغرات التي يمكن أن تنفذ منها للرد على المجلدات، واكتشاف أخطاء أكون قد تورطت فيها لتجسيمها واستخدامها في دعاية تستهدف تجريد مجلداتي من قيمتها العلمية. وبعد دراسة طويلة رفعت اللجنة من علماء القانون الدولي تقريرها إلى رئاسة الشركة، وقالت فيه إنها تحذر من محاولة الرد علي أو تجريحي، لأنه ليس فما كتبتُ ثغرة واحدة تستطيع الشركة أن تنفذ منها، وكانت هذه هي الأمانة العلمية التي تحلت بها لجنة تقاضت أتعابًا لا يستهان بها!!

ويقول الدكتور مصطفى الحفناوي: ومرت السنوات، وأصبحنا أحسن حالاً، وأتذكر دائمًا ابني وفلذة كبدي الذي توفاه الله. وأصبح أبنائي جميعهم على درجة عالية من العلم.. وساعدني الرئيس عبد الناصر كثيرًا، رحمه الله.

وعاش الدكتور بقية حياته في عزلة تامة بعيدًا عن أعين الآخرين هو وزوجته في مكان هادئ على شاطئ البحر الجميل بمنطقة العجمي بالإسكندرية. وهاجر أبناؤه للخارج ويعيشون هناك في أمريكا.. وعاش الدكتور على ذكرياته الغالية مع رجال الثورة ومع رجال السياسة هو وشريكة حياته العظيمة. وبعد فترة توفاه الله برحمته الواسعة. رحمة الله عليه هو والزعيم الخالد المرحوم جمال عبد الناصر، والزعيم الخالد المرحوم محمد أنور السادات.

تمت بحمد الله وتوفيقه، ،